شلن

قصة بقلم أحمد كمال زكي

حين لفظه الباب الكبير أحس النار تلفح وجهه وتضغط على عينيه ، فاسرع ينشد الظل بجانب العمارة الضخمة المواجهة للديوان . ورفع رقبته يبحث بين الرؤوس المتدافعة عن رشدي افندي قبل ان يفقد الأمل . وخيل اليه انه يراه فزعق زعقة ضاعت في اللغط المتصاعد ثم اندفع إلى امام، فارتطم بعشرات الاكتاف والكروش . وانتابه ضيق ممض والتصق لسانه بسقف حلقه ، ثم القى بنظرة اخيرة على الباب الأخير ومضى في الطريق .

كان عليه ان يقطع المسافة بين لاظوغلي وشبرا مشياً على قدميه.. فلم يعثر على رشدي افندي ، وكان قد وعده بان يكون ركوبه على حسابه ، أتراه هرب ؟ إنه لم يجبره ولا يستطيع ان يجبره وما كان له ان يدفع ثمن زجاجة البيبسي حين قبض فرق العلاوة منذ قريب دون ان يحسب حساب الأيام ، ومع ذلك فلو كان معه ثمنها الآن لركب وهو مطمئن..

وابتسم في مرارة وسأل نفسه : ترى ماذا يكون لو دفعت ثمن التذكرة فينتهي كل شيء وأستريح ؟

وثار رأسه وضج صدره ولجّ في فكر صاخب هادر . وعندما وصل الى المحطة لاهثاً رأى عشرات الموظفين ينتظرون الترام، وشعر بشواظ النار تلهب وجهه فوضع يده على رأسه ومسح حبات العرق باصابعه ووقف متردداً حائراً وعاد يسأل نفسه : وماذا لو ركبت واختفيت في زحام الراكبين ؟

وراقته الفكرة ، وحاول ان يذكر كم مرة ركب دون ان يدفع ثمن التذكرة . وودّ من اعماقه ان يكون الكمساري عجوزاً او سميناً او قصير النظر لا يراه وهو معلق في الجانب الآخر بعيداً عن يده . ولكن آماله انكمشت حين اقبل الترام فوجده — لسوء حظه — لا يتمشى وخطته ، وصوّب نظره إلى الكمساري فوجده يثب كالفأر هنا وهناك، فدق قلبه وعاد الى العربة الأخرى ينظر اليها فلم يطمئن إلى نظرات المهيمن عليها ، فتراجع إلى وراء ، ولم يلبث ان شاهد عربة اخرى تقبل على المحطة في تثاقل ، وإن هي إلا لحظة واخرى حتى كان قد اختفى بين الاجساد والانفاس والعرق الكريه .

وندّت عن صدره تنهيدة مستطيلة وأحس راحة عذبة، ولم يعد يؤلمه لكزات الراكبين ، واستدار برأسه يحدد موقع الكمساري فلم يستطع . ولكن خيل اليه انه يحادث السائق او قنع بركن من اركان الترام فوقف فيه او لعله اخذ مكان أحد الراكبين ، ومن يدري فقد يكون الآن غارقاً في سبات عميق .. أفمن الممكن ان يكون السائق نسيه في محطة سابقة؟!

و...فجأة سمع صوته المبحوح: تذاكر.. تذاكر يا افندية.

وغاص قلبه وانقطع حلمه الجميل ، وخشي ان هو حوّل رأسه ان يلمحه فتكون الطامة الكبرى ، وودّ من أعماقه لو ابتلعته الارض أو ذاب في الهواء أو خرّ مغشياً على نفسه أو مات في أشعة الشمس على رصيف من أرصفة الشوارع .

وانقطع الصوت والطرق على الرقعة الخشبية قليلاً ثم ... ثم كأنما المكان ينشق عن الكمساري فيجده أمام عينيه قبل أن يفكر في إغماضها .

ومدّ يده الى جيبه يائساً واخرج آخر شلن اقترضه في آخر يوم من ايام الشهر. وعندما تسلم التذكرة ، تذكّر أنّ عليه أن يركب من العتبة أو من محطة باب الحديد تراماً آخر ليصل به إلى شبرا، ومعنى ذلك ان يطير من الشلن ثلثه فماذا يبقى له ؟

ولم يستطع ان يقدر الباقي تماماً ولكنه أحسّ أن كل شيء ليس على مايرام ، وبدت له امرأته في النافذة تنتظره كما اعتادت ان تفعل كل يوم ، وتحت قدميها بنته فاطمة ، وعلى السلم ابنه كمال .. ثلاثة أفواه إلى جانب فيه تطلب القوت . ولقد تعودت دائماً ان تأكل في هذا الوقت ، والغريب ان الصغير منها يأكل ضعف الكبير !

وابتسم وبدأ يسأل من جديد : لماذا لا أدخل البيت فأجد احدهم نائماً ، وماذا لو غشيتهم غاشية فناموا جميعاً إلى غد ؟

ولكن أهذا حل ؟

ترى كم يكفيهم لطعام يومهم هذا ؟

وماذا يأكلون ؟

وعندما قرقع الترام بعد وقفة له أحس برأسه يقرقع ووجد نفسه في الميدان العريض طريداً ذليلاً . ولما استطاع ان يملك

زمام نفسه اخذ يحسب حساب الطعام بهدوء ومن جديد ، وبدأ فقرر العدول عن الركوب مرة اخرى ، وأقسم ان يقطع الطريق على قدميه مهما تكن الأسباب

أجل ماذا يأكلون ؟

وضرب الأخماس بالأسداس واختلط عليه الأمر ثانية ، وعجب كيف يخطىء الناس في العدد الكبير وهو كلما صغر كان لغزاً من ألغاز الحياة . واندفعت الافكار في رأسه وتراكمت السحب وتحرك لسانه يقول : خمسة أرغفة .. لا بل اربعة .. ولكن ماذا لو كانت ثلاثة ؟ مستحيل اللهم إلا إذا نام احدنا ، وانا لن انام .. اربعة تكفي بالكاد فكم يبقى معي؟ هذه مسألة حساب فأين حلها يا فاطمة ؟ ولكن هل يكفي الخبز وحده ؟ ماذا اشتري بالباقي .. وهل يكفي ؟ والسجاير .. لعن الله السجاير والذين يدخنونها و .. انا لا أسب احداً ...

ودار رأسه من جديد ، وشعر انه اخطأ حين فكر في السجاير في مثل هذا الوقت ، وشرع يجتاز ثالث أزمة هذا اليوم بشأنها . وكانت المرة الأولى حين طلب الى فاطمة ان تشتري له السيجارتين «الهوليود» فخرجت بقرش وعادت بغير شيء .. سامحها الله ! والمرة الثانية في المكتب حين استحلف من أجل سيجارة واحدة عثمان الشواربي .. استحلفه بأبيه وأمه وجدوده وجميع افراد اسرته الميامين ، والمرة الثالثة عندما ...

ولكن ماذا يأكلون ؟

وسار متعثراً يرفع إحدى يديه على عينيه ، وبالاخرى يمسح عرقه . ولأول مرة يستشعر صداعاً يحطم رأسه ، وعند نهاية الرصيف قابله بائع اليانصيب :

— يا صاحب النصيب !

— لست انا على أي حال

— السحب اليوم ٢٠٠ جنيه

— مرة واحدة ؟

— آخر ورقة يا بيه

— وانا ايضاً في آخر شلن

— خدها يا بيه

— خد انت روحي وحياة والدك !

وصرخت سيارة بجانبه فوثب يعبر الى الرصيف الآخر ، ولأمر ما اضطرب حبل النظام ، فوجد نفسه بين خمس عربات أو ست ، وتصايح الجميع ، وعلا النفير ، ولهث مضطرباً وجلاً وكاد يسقط بين العجلات ، وشعر بأنه تافه ضئيل ، وأنشأت العيون تقتحمه في ازدراء عجيب حتى إذا أنقذ من ورطته بدا له انه في حاجة الى كوب ماء و ... سيجارة !

ونظر حواليه ودقق النظر ولكنه لم يكن يرى شيئاً ، وخيل اليه انه يتلاشى في الضجيج الذي يملأ الارض والسماء ، وحرك قدميه فاستشعرهما ثقيلتين ، وتذكر ابنه حين كان يحاول السير فلا يستطيع . إن هذا الملعون يملأ البيت صياحاً فلا يجعله يهنأ برقاد ، إنه دائماً يصيح من اجل الطعام ، وهو يأكل كل شيء .. حتى اعقاب السجاير التي ينسى فيلقي بها الى الارض.

وبدأ يصعد الجسر في تثاقل ، واندفعت من تحته قاطرة فطواه دخانها ، ولما تبدد حاول ان يميز بين هذا الدخان ودخان الهوليود .. فهو يحب هذا الصنف ، بعكس صديقه رشدي افندي .. اما عثمان فلا يدخن إلا الرفيع الرفيع ، وفي اوائل الشهر يلذ له ان يحرق علبة « امريكاني » أو علبتين ...

لعن الله الأمريكاني ولعن الانجليزي ولعن كل شيء .. إنه يريد ان يعرف ماذا يأكل أو ماذا تأكل اسرته ؟ فلقد عرف ان نصف ما معه يكفي لشراء الخبز ، فكيف يدبر بالباقي الادام والسجاير ؟ هل يستطيع ان يتنازل عن أيها ؟ مستحيل! فهما ألزم منه هو الى حياته نفسها ! أكان من الممكن ان يكون في الشلن أكثر من خمسة قروش؟ لماذا لم يجعلوه عشرة مثلاً أو تسعة أو حتى ستة ؟ لو كان هذا لاستراح الآن .. ولكن هل كان حسني افندي يقرضه إياه لو كان كذلك ؟

إن رأسه ثقيل وفي حاجة الى شيء .. أين بائع الدخان ؟ ليكن ما يكون ، فهو يريد ان يفكر في هدوء ، ولا بأس إذا ضحى بالتعريفة المكسور في سبيل دخينة عربية .. فهو عربي ، ووقف يشعلها من القنديل الصغير فجاءت منه لفتة الى دكان الجزار ، وتآمر عليه خياله ، وصور له الوهم « طبلية » تنوء بصينية البطاطس والضلع المحمر .. كلا فهو يحبه مشوياً ، ولكن لا ضير إذا جاءه محمراً ، أما لو كان مسلوقاً فلن يطيب له إلا في العيد وبجانبه الشوربة الدافئة والثريد و ..

يا لله !!

وأغمض عينيه برهة ، وعندما استطاع ان يفتحهما وجد عيني الجزار تحدقان فيه فأسرع يبتعد عنه وطرد من رأسه فكرة الثريد والضلع المشوي . ولكن هل يمنعه احد من ان يفكر؟ ولماذا لا يجد الحرج حين تصل الى خياشيمه رائحة الطعمية؟ أفيشتريها فيستريح ؟

إن زوجته ستصرخ فيه إن حملها اليها بعد حادثة امس ،

وستطالبه بالفجل والجرجير والبطيخة أو الشمامة أو على الأقل برطلي خيار !!

أهكذا يعز عليه ان يشتري أي شيء ؟ لماذا تزوج في هذه الايام والدنيا كرب والغلاء غول رهيب .. لقد قيل له انه سيستريح فلم ينعم براحة قط .. حتى في ليلة زفافه غاظته امرأته حين ابت ان تمسك بأصابعه بعد ان مدّ اليها يده ، ربما كانت تكرهه .. فهل تحبه الآن ؟

لولا انها ام لولديه لتغير موقفه منها .. فهي ملعونة يشهد الله : ولا تحاول مرة واحدة ان تشكره ، حتى حين تكون راضية لا تنسى ان تسخر منه ، والغريب انها ليست كما تظن .. إنه يخشى ان تشب بنته فاطمة مثلها ؛ فالدلائل كلها تنطق بانها صائرة الى ان تكون صنواً لها !! أما كمال فسيجعل منه رجلاً .. رجلاً بمعنى الكلمة ، وسيعلمه وسيدفع به الى الجامعة ، وسيفعل له كل شيء ليكسب كثيراً ، وسينصحه بألا يدخن ، كما سيحرص على ألا يكون مثل اخته ، هذا الولد لطيف .. ولكن عيبه الوحيد صراخه و .. نهمه .. إنه يحب الأكل كثيراً .. وهو كذلك .. وفي الحق من يكرهه ؟

مرة اخرى .. ماذا يأكلون ؟

أسيظل يبحث بغير هدى ؟

ماذا لو ترك كل شيء حتى يعود الى منزله ؟ ان احداً لا يجوع حتى كلاب الأرض !!

وطواه الشارع الكبير في زحامه ، ولم يحاول إلا ان يتطلع الى دكاكين البقالة ومحلات الأكل . وبدا امامه شبح امرأته وهي تنتظره في الشباك وتحت قدميه فاطمة بيننا يقف ابنه كمال على السلم ليقطع عليه الطريق . وتنهد في حسرة .. فقد كان من الممكن ان يبقى معه شيء لو لم يكن عنده هذان الابنان ، إلا ان زوجه تريد العيال ليملأوا عليها الدار ، ونسيت دائماً — لعنة الله عليها — ان الاولاد تتناسب مع ميزانية الأب تناسباً عكسياً ، ومع ذلك .. ألم يكن يجدر بها ان تنتظر بعض الوقت ؟!

ان الساعة توشك ان تفارق الثالثة فكيف زوجه الآن ؟

أتراها لا تزال وراء الشيش ؟

وابتسم في بلاهة .. انها لا بد تمني نفسها بطعام وفير . ليس من اللازم ان يكون دسماً ، وإنما يجب ان يكون مما يفتح الشهية ؛ ولو كان الامر بيده لآثر ما يصدّ النفس ويغمها فيستطيع ان يوفر شيئاً ...

والمدهش بعد ذلك ان تعتب عليه دخوله الدار بلا شيء .. يد وراءه ويد امامه ! حقاً كلٌّ ورزقه ؛ ولكن هل يضمن هذا الرزق كما يضمنه هذا القط الذي يتمسح بدكان ذلك الحاتي ؟ وهذا الكلب الذي يتربص بالعظم الدوائر ..

تباً لرائحة الشواء !

لماذا لا يقتحم الدكان فيأكل ويأكل ويأكل حتى ينفجر كرشه فيموت ويستريح ؟

شيء واحد يمنعه عن ذلك .. ليس الشرف على أي حال ولا الخوف ، وإنما اسرته ، إذن فهو مجبها ؟ ومن قال غير ذلك ؟ ان الشيء الذي يحز في نفسه ان احداً منها لا يرثي له والجميع فيها يرهقونه بالطلبات .. دائماً هات هات .. كان من المستطاع ان يأتي لهم بكل شيء لو كان الله وسع عليه قليلاً .. فماذا يفعل ؟ ان الطلبات لا تنقطع والثمن لا بد ان يرتفع حتى ارهقه الارتفاع ..

يا لهذا الكلب الذي يقتحم دكان الجزار في جرأة . إن صاحب الدكان لا يلمحه ولا يتطلع إليه . إنه يهوي على الكتلة الحمراء بعنف .. من صاحب النصيب فيها ؟ لن يكون هو على اي حال !

ولكن هذا الكلب .. رباه !! ما اوقحه !! لقد اختطف ماسورة وهرب .. إنها كبيرة عامرة .. هل يستطيع ان يجري وراءه فينتزعها منه ؟ إنه لا يريد ان يردها لصاحبه ...

وضحك ..

ضحك في عمق هذه المرة .. فلقد غاب عنه شيء هام ، وشكراً للكلب اللص .. فقد فتح امامه سبيل الحياة .. إلى قبل العشاء على اقل تقدير ، ولن يشقى الى هذه الفترة ، وسيأكل .. سيأكل ثريداً رغم انف الجميع ، وسيشبع اولاده ، وسيمتلىء هو ، وسترضى زوجه وإن كانت ستقابله بالسخرية والغمزات .

وأصلح من رباط عنقه وشدّ قامته واندفع إلى دكان الجزار وتنحنح مرة او مرتين ، ثم رفع صوته حتى لا يضطر إلى إعادة ما يقول ..

— السلام عليكم !

— عليكم السلام .. طلبات البيه ؟

— لا لا شيء .. إنما والله بهذين القرشين إعطني عظمتين للكلب .

وحدّق فيه الجزار مليّاً فأطرق إلى الأرض ، ولم ينطق بعد ذلك بحرف حتى استقبلته زوجه بالزعيق المألوف . ولم يحاول ان يردّ عليها لأنه كان يفكر في واحدة هوليوود .

القاهرة

احمد كمال زكي

من الجمعية الأدبية المصرية